

توظيف أسطورة جبل قاف في رواية جبل قاف ل عبد الإله بن عرفة  
Using the legend of Mount Qaf in the novel Mount Qaf by Abdelilah Ben  
Arafa

سليمة عشو

جامعة محمد الشريف مساعديّة، سوق أهراس

3acho2011@gmail.com

تاريخ النشر: 2025/09/30

تاريخ القبول: 2025/03/29

تاريخ الاستلام: 2025/02/04

**ملخص:**

إنّ أسطورة جبل قاف والتي تُنسب إلى جبل قاف الذي يحيط بكل العالم والمليء بالغموض، هي من الأساطير المعروفة في الثقافة العربية والإسلامية ومنها التّراث الرّوحاني خاصّة؛ فهي ترمز إلى العوالم المجهولة غير المكتشفة المليئة بالإثارة والخيال وبالتالي كانت مصدر إلهام للروائيين والكتّاب فصيّروها موضوعاً أدبيّاً، ومن هؤلاء الرّوائيين: الرّوائي المغربي عبد الإله بن عرفة في روايته "جبل قاف" والتي تسرد سيرة الشيخ محيي الدين بن العربي بلسانه. والهدف من هذا البحث هو معرفة العلاقة التي تربط بين أسطورة جبل قاف والشيخ محيي الدين بن العربي في هذه الرواية، والتّائج المتوصّل إليها بيّنت أن ابن العربي معادلاً موضوعياً وبديلاً لجبل قاف الأسطورة فأسقط عليه كل خصائص هذه الأسطورة. وذلك لبيان عظمته ووصف رحلته الرّوحانيّة. كلمات مفتاحية: الأسطورة. أسطورة جبل قاف. محيي الدين بن عربي.

**Abstract:**

The legend of Mount Qaf, which is attributed to Mount Qaf that surrounds the whole world and is full of mystery, is one of the well-known legends in Arab and Islamic culture, including spiritual heritage in particular; it symbolizes the unknown, undiscovered worlds full of excitement and imagination, and thus was a source of inspiration for novelists and writers, who turned it into a literary subject. Among these novelists is the Moroccan novelist Abdelilah Ben Arafa in his novel "Mount Qaf", which narrates the biography of Sheikh Muhyiddin Ibn Arabi in his own words. The aim of this research is to know the relationship between the legend of Mount Qaf and Sheikh Muhyiddin Ibn Arabi in this novel, and the results reached showed that Ibn Arabi is an objective equivalent and alternative to the legendary Mount Qaf, so he applied all the characteristics of this legend to it. This is to demonstrate its greatness and describe his spiritual journey

**Keywords :** The Legend. The Legend of Mount Qaf. Muhyiddin Ibn Arabi.

## 1. مقدمة:

منذ وُجد الإنسان على ظهر الأرض وهو يبحث ويتأمل في الكون علّه يجد تفسيراً لما يحدث حوله من ظواهر طبيعية، وحاول على مرّ العصور فهم العالم من حوله، فاخترع أساطير ورموز تعبر عن تطلّعاته الروحية والفكرية وتُجيب عن أسئلته الدائمة والمستمرة حول نفسه والعالم. ولتبقى هذه الأساطير مصدر إلهام للعديد من أعماله الأدبية والفنية، وتجسد رغبته الدائمة والملحة في استكشاف المجهول والبحث في أغواره. هذا الاستكشاف يجعلنا نتساءل لنعرف حتى لا نأخذ المعرفة الجاهزة ونسلم بأنها الحقيقة المطلقة دون الغور في مكنوناتها، لكن ليس معنى هذا أن نؤمن بصحّتها إيماناً مطلقاً، أو نقتنع الآخرين بصحّتها ومدى جدواها، وهنا نقف موقف احتمال وجود هذه الحقيقة أو تلك من عدمه وهذا الموقف الذي نتبعه في هذه الدراسة بالتّسليم بوجود جبل قاف، وهذا الوجود قد يكون مادياً أو معنوياً وبالأوصاف التي ذُكرت عنه؛ بالنّسبة للمادّي فهو ما تراه العين وتلمسه اليد وتصعد فوقه القدم، لكن هذا ليس مجال بحثنا. فنحن لا نبحث عن المغامرة المادية. لكن الوجود المعنوي هو عبارة عن رحلة خيالية أو صوفية التي قد تكون عن طريق الرؤيا في المنام والتي يقوم بها العارف الكاتب، وهذا الوجود هو من نبحث فيه لمعرفة تلك الأدبيات التي وصلتنا، والتوصّل إلى معرفة قوّة الخيال وإعمال العقل فيها أيضاً. ما علاقة أسطورة جبل قاف بمحيي الدين بن العربي؟ وكيف وظّفها الروائي؟ وإلى أي مدى أحاط بكل أسرارها؟ والهدف من هذا البحث التّعرف أسطورة جبل قاف، والعلاقة بينها وبين والشيخ ابن العربي، وللكشف عن الإبداع الرّمزي والجمالي كان التأويل (الهرمينوطيقا) هو المنهج المتّبع في هذه الدراسة.

## 2. مفهوم الأسطورة:

جاء في لسان العرب لابن منظور عن مفهوم الأسطورة في مادّة "سَطَرَ" «الأساطير: الأباطيل والأساطير: أحاديث لا نظام لها، وقال اللحياني: وأحد الأساطير أسطورة جمع الجمع وسطرها: ألّفها واطر علينا: أتانا بالأساطير، الليث: يُقال: سَطَرَ فلانٌ علينا يسطرٌ إذا

جاء بأحاديث تشبه الباطل»<sup>1</sup>، هذا التعريف ينطلق من مفهوم العرب ومرجعيتهم عن الأسطورة قبل مجيء الإسلام، لذلك عبّرت الآية (5) من سورة الفرقان بلسانهم عن القرآن الذي جاء به الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنه أساطير وأحاديث باطلة قالها الأولون: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلُونَ اٰكْتَتَبَهَا فِيهَا تُمَلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ وفي تفسير ابن كثير للأساطير: «يَعْنُونَ كُتُبَ الْأَوَائِلِ أَي اسْتَنْسَخَهَا»<sup>2</sup>؛ هذه نظرة العربي قديما للأسطورة مما جعل الإقدام على دراستها نوعا من العبث ومن الخرافة، و تعدّد تعريف الأسطورة من ليفي شتراوس إلى يومنا هذا وهذا يدلّ على أن مفهومها زئبقي يصعب التحكّم في كل مكان وكل زمان فيه فهي تشمل حكاية أو قصّة أو سرد وعلى هذا فهي كلام، وهذا الكلام ينتقل من شخص إلى آخر وبالتالي من جيل إلى جيل فيتغيّر هذا الكلام وربّما هذا هو المقصود من الأسطورة نتيجة التداول عليها، «فالأسطورة عبارة عن منظومة اتّصال...إنها صيغة من صيغ الدلالة...وكل ما يخضع للخطاب من شأنه أن يصبح أسطورة»<sup>3</sup>. إنّ هذا التعريف يحمل مضمون الأسطورة بوصفها شكلا ومعنى. فالأسطورة خطاب مقصود يحمل معنى ومرجعا، هذه المرجعية هي تاريخ النشأة، والخلق، والصراع من أجل البقاء. والمعنى يختلف حسب تفسيرها. والباحث هو من يقوم بتوظيف الأسطورة لتفسير الظواهر غير المألوفة أو تأكيدها فإنّها تُعتبر بناء ثان للنصّ يشدّ من أنقاضه ويرمّم شقوقه، «إنّ الأسطورة ليست اختراقا للمألوف فحسب، بل هي بناء أيضا، بمعنى أنّها شكل أدبي له سماته المميّزة من الأنواع الأدبيّة الأخرى»<sup>4</sup>. لكن توظيف الأسطورة في هذا المتن الروائي لا يعدو إلا أن يكون اختراق للواقع وركوب موجة الخيال الخارق ودخول عوالم الغريب والعجيب من أجل الحرّية؛ حرية الخيال الذي يسمح للكاتب الوصول إلى مبتغاه في معرفة الحقائق وتفسيرها والدّفاع عنها أيضا، «والعجائبي لا يعني تضمين النصّ حقائق غير معروفة، بل وسائل غير معروفة في وعي الحقائق والتعامل معها، إنه استغوار للواقع، ولكن بوسائل غير واقعيّة، تحرّر الإنسان من المألوف، وتنبّهه على المخاطر التي تحدق به ممّا ينتج هذا الواقع حوله من مفارقات غاشمة تبدّد إنسانيته»<sup>5</sup>.

## 1.2 أسطورة جبل قاف عند الجغرافيين:

يُقال أنّ جبل قاف أسطوري ويُعتقد أنه يحيط بالعالم بأسره وتُحيط به الأراضي السبع كماكن مليئة بالأسرار والمخاطر، والوصول إليها نوع من المغامرة. ومن بين هذه الطبقات تبرز "الأرض السفلى" التي يُقال إنها موطن للجن والشياطين، و"الأرض الوسطى" التي يُعتقد أنها مكان للأنبياء والأرواح الطيبة. وقد ذكر زكريا بن محمد بن محمود القزويني في كتابه: "عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات" في فصل: فوائد الجبال وخواصها وعجائبها جبل قاف: «قال المفسرون إنه جبل محيط بالدنيا وهو من زبرجدة خضراء وخضرة السماء منه ووراءه عوالم وخلائق لا يعلمهم إلا الله تعالى وقال بعضهم ما من جبل من جبال الدنيا إلا وعرق من عروقه متصل بقاف فإذا أراد الله أن هلاك قوم أمر الملك الموكل به فيحرك عرقا من عروقه يخسف بهم»<sup>6</sup>.

وكما جاء في خريدة العجائب وفريدة الغرائب لابن الوردى «واختلفوا في الجبال. قال الله تعالى: «وألقي في الأرض رواسي أن تميدَ بكم " وقال تعالى: "ق، والقرآن المجيد. " قال بعض المفسرين. إن من جبل قاف إلى السماء مقدار قامة رجل طويل. وقال آخرون. بل السماء منطبقه عليه. وقال قوم: من وراء قاف عوالم وخلائق لا يعلمها إلا الله تعالى. ومنهم من يقول: ما وراءه فهو من حد الآخرة ومن حكمها، وأن الشمس تطلع منه وتغيب فيه وهو الساتر لها عن الأرض؛ ومنهم من يزعم أن الجبال عظام الأرض وعروقه»<sup>7</sup>.

إن ما جاء به القزويني وابن الوردى وغيرهم عن وصف جبل قاف يشير إلى أنه جبل عجيب من عجائب الدنيا وأمره غريب لكنهم لم يروه رأي العين، بل نقلوا خبره بقولهم: قال بعض المفسرين وإستنادا إلى رواية ابن عباس رضي الله عنه وتفسير القرطبي أمّا ابن كثير فقد عدّ هذا الكلام من الإسرائيليات في تفسيره. كما أنّ قصة جبل قاف متشابهة ومتقاربة عند جميع الجغرافيين العرب وذلك لاستلهاهم هذه الأسطورة من مصدر ديني وهو القرآن الكريم، وتداولوها بمادتها وبمعانيها والأغرب من ذلك رسموها على خرائطهم ومنهم الإدريسي صاحب أشهر خريطة في العالم والذي وصل إلى كل مكان في العالم وتحدّث عنه في كتابه "نزهة العشاق في اختراق الآفاق" كالبحار والجزر والأشجار والجبال... فكيف لم يذكر أنه وصل إلى جبل قاف وبالرغم من ذلك رسمه في خريطته.

## 2.2 أسطورة جبل قاف في التراث الإسلامي:

لقد أكد الباحثون القدامى والمعاصرون على وجود جبل "قاف" وهناك من أنكر وجوده واعتبره مجرد أسطورة من الأساطير الشعبية والصوفيّة تتداولتها القصص القديمة التي تشير إلى أن هذا الجبل الشاهق يمتدّ إلى السّماء ويُعتقد أنه يحيط بالعالم بأسره. ويعيش فيه الجن والمخلوقات الخياليّة. وهو مزار للأولياء حسب المرويات، وكان لا يبلغه إلا من بلغ مقاما عاليًا في الولاية. وتُصوّر الأساطير جبل قاف كمكان سحري مليء بالعجائب والمخاطر، ويُقال إنّ شخصا واحدا فقط استطاع الوصول إليه وهو ذو القرنين.

لقد ذُكر هذا الجبل كثيرا عند العرفانيّين والمتصوّفة خاصّة في رحلاتهم وجاء في أدبيّاتهم. وذلك من خلال سورة قاف (ق) و القاف هو الحرف الذي افتتحت به السّورة و أقسم الله تعالى به بقوله: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ(1)﴾. ونستدلّ على ذلك من خلال تفسير القرآن العظيم لابن كثير؛ إذ يتحدّث عنه في معرض تفسيره لسورة "قاف" «عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خلق الله تبارك وتعالى من وراء هذه الأرض بحرا محيطا بها، ثم خلق من وراء ذلك البحر جبلا يقال له قاف، سماء الدنيا مرفوعة عليه، ثم خلق الله تعالى من وراء ذلك الجبل أرضا مثل تلك الأرض سبع مرات، ثم خلق من وراء ذلك بحرا محيطا بها، ثم خلق من وراء ذلك جبلا يقال له قاف، السماء الثانية مرفوعة عليه، حتى عدّ سبع أرضين وسبعة أبحر وسبعة أجبل وسبع سموات»<sup>8</sup>.

وجاء في كتاب "عرائس المجالس": «قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه أول ما خلق الله الأرض عجّت وقالت يا رب تجعل علي بن آدم يعملون على الخطايا ويلقون علي الخبائث فاضطربت فأرساها الله تعالى بالجبال فأقرها وخلق الله جبلا عظيما من زبرجدة خضراء خضرة السماء منه يقال له جبل قاف فأحاط بها كلها وهو الذي أقسم به الله فقال (ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ)»<sup>9</sup>.

أمّا الشيخ الأكبر محيي الدّين بن العربي الحاتمي وهو المقصود في رواية عبد الإله بن عرفة فقد رمز له بجبل قاف وهذا يعني أن جبل قاف هو المعادل الموضوعي للشيخ ابن

عربي، وهذه الرواية تسرد سيرة الشيخ من ميلاده بمرسية بالأندلس حتى وفاته ودفنه في سطح جبل قاسيون بالشام «لقد آن الآوان أن ترسو سفينتي أخيرا في قاف النهاية، أمشي إلى الشام وأشمّ نفس الرحمن. لقد دخلت خزانة في بلاد المغرب وخرجت منها إلى بلاد المشرق. وها هي السفينة تحنّ إلى أن ترسو وتعود إلى قاف البداية قاف النهاية»<sup>10</sup>. لقد ذكر الشيخ ابن عربي جبل قاف في كتابه الفتوحات المكية الجزء الثالث والرابع والخامس «أخبرنا صاحبنا موسى السدراني وكان صاحب حظوة محمولا قال: لما وصلت إلى جبل قاف وهو جبل عظيم طوّق الله به الأرض وطوّق هذا الجبل بحية عظيمة قد جمع الله رأسها إلى ذنبها بعد استدارتها بهذا الجبل قال موسى: فاستعظمت خلقها قال: فقال لي صاحبي الذي كان يحملني: سلم عليها فإنها ترد عليك، قال: ففعلت فردّت السلام وقالت: كيف حال الشيخ أبي مدين؟ فقلت لها: وأنى لك بالعلم بهذا الشيخ؟ فقالت وهل على وجه الأرض أحد يجهل الشيخ أبا مدين...»<sup>11</sup>.

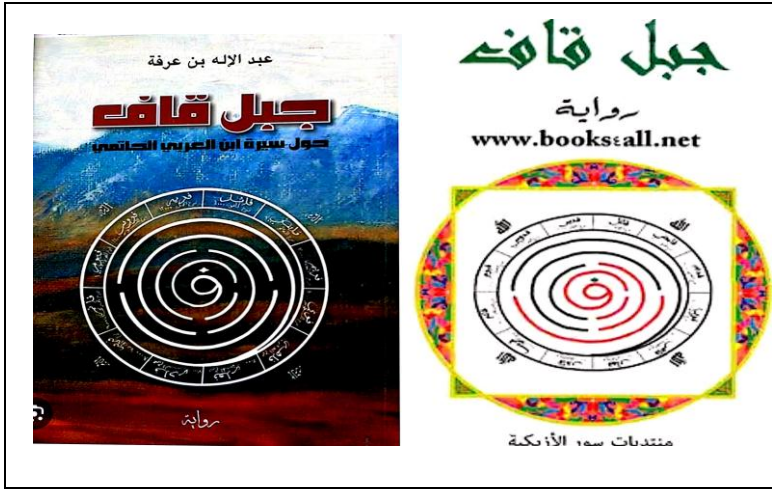
ومن خلال هذه الشواهد الثلاثة التي تشبه بعضها البعض وتشبه الكثير من الآراء الواردة بخصوص هذا الجبل ومكانته الدينية -لا يتسع المقام هنا لذكرها جميعا -نستنتج أن وجود جبل قاف قد يكون حقيقة جغرافية ودينية، وقد يكون من نسج الخيال الجامح؛ هذا الخيال ناتج من رحلات المتصوفة سواء أكانت مادية أو معنوية، ونتيجة تكراره في أدبياتهم أصبح أسطورة شكلا وصورة في كونه جبلا في الخيال أو الواقع. ومضمونا فهو يختلف حسب توظيفه، فهو يُذكر كجبل مقدّس عظيم لديه هيبة تُحيط به الأرضين السبع ومطوّق بحية تحرسه، هذا الوصف لما يكون التوظيف عرفانيا فلا خوف ولا ظلمة فتوظيف هذه الأسطورة نوراني. عكس ما نجده في الأساطير الإغريقية المخيفة والتي تحرس مدينة أو أي مكان كما ورد توظيفها لدى الكتاب العرب على سبيل المثال لا الحصر رواية "رامة والتنين" لإدوارد الخراط، فالتنين أسطورة ترمز إلى كل أنواع الشر والخوف، وهذا لا يعني عدم وجود الأساطير النورانية.

ومن هنا نرى أن كلُّ يصنع أسطوره الخاصّة المعبّرة عن انشغالاته والمجيبة لأسئلته التي تراوده والتي يراها حقيقة لا خيالا ويؤمن بها، فالكتاب هو من يُلبسها أفكاره ويحوّلها ويحوّرها كما يريد لاستثمارها في مواقفه تُجاه العالم وتُجاه نفسه. «...فالتصور البشري أوجد العالم العلوي وأوجد له شخصياته، وأوجد العالم السفلي وأوجد له شخصياته»<sup>12</sup>. والأسطورة ليست مقتصرة على الماضي أو هي حكاية الماضي فقط بل هي صالحة للحاضر والمستقبل أيضا. بل هي الحديث اليومي بكل تفاصيله. «الأسطورة ليست رهنا بالماضي، لأن أي مجتمع ينحو باستمرار إلى أسطرة أشياءه اليومية»<sup>13</sup>.

### 3. توظيف جبل قاف في رواية عبد الإله بن عرفة:

إنّ جبل قاف يمثّل جزءاً لا يتجزأ من التّراث الأسطوري والثّقافي للعديد من الشّعوب العربيّة والإسلامية وذلك خلال القصص والحكايات التي وصلت إلينا ومنها خاصّة كتاب ألف ليلة وليلة وبسبب كثافة المادّة المعرفيّة وكثرة الحكايات والقصص الشّعبيّة المرويّة عن هذا الجبل أصبح أسطورة تداولتها الأجيال المتعاقبة حتى باتت قابلة للتّحويل والتّحوير فكانت مجالا خصبا لإثارة الخيال والتشويق لدى الكثير من الكتاب والشّعراء.

إن توظيف جبل قاف في رواية جبل قاف، كان توظيفا في الأساس عرفانيا، تمثّل هذا الجبل في شخصيّة الشّيخ الأكبر محيي الدين بن العربي من خلال سرد سيرته كرمز للمعرفة الرّوحية، وبما أن جبل قاف مكان اللقاء بين البشر والجن، -كما جاء في المرويّات- فكانت وظيفة الأسطورة التي وظّفها ابن عرفة إنارة كل ما هو ظلماني فهي ليست كالأساطير التي أُلّفناها في الرّواية العربيّة والتي تثير الرّعب والخوف، فهذه الأساطير المتمثّلة في الوحوش الأسطوريّة لها مهمّة نورانيّة وهي حراسة أسماء الله الحسنى وهي اثنتا عشر اسما في جبل قاف وكلّها تبدأ بحرف القاف منها: قديم، قدير، قادر، قابض، قريب، قدّوس، قوي، قاهر، قهار، قائل، قائم، قيوم. ويظهر ذلك في غلاف الرّواية كما في الصّورة.



لقد خصّص الرّوائي عبد الإله بن عرفة روايته الأولى "جبل قاف" للشيخ الأكبر والكبريت الأحمر و"القاف" "محيي الدين بن العربي" وقد قسم هذه الرواية إلى مشاهد وكل مشهد يحمل عنوانا يعبر عن مكان أو زمان أو شخصيات، وتتوزع في الرواية على واحد وستين مشهداً، ومُعَلِّمة باسم القاف هذا الحرف الذي يتكرّر في كل مشهد من هذه المشاهد. وتبدأ الرحلة من قاف مرسية أي من مرسية قاف الأسماء ليصل إلى قاف توحّد المسعى «عشرون عاما مضت منذ خرجت من بلاد الأنوار. بل هي ثلاث وعشرون على التّحديد كانت هجرتي على صورة رسالة أكمل الكمل. فالحياة كلّها هجرة، فانظر من أين تهاجر وإلى أين تهاجر ولمن تهاجر. كلّت قدماي وأصابها السّام حتّى حلت بالشّام»<sup>14</sup>.

إنّ هذه الأسطورة ليست من الأساطير التي تتحدّث عن الآلهة وتفسّر نشأة الكون وأصل الإنسان، وصراع الإنسان مع الوحوش الخرافية كما في الأساطير الإغريقية التي لها فهم ظلماني وإتّما وظّفها الروائي لمعادلتها مع بطل الرواية وجعلها أسطورة نورانية، فهي في "جبل قاف" لها فهم نوراني. فالكاتب نزع عنها مفهومها الأوّلي وألبست معنى نورانياً ومفهوما معرفياً؛ ذلك أن صاحبها ينزع بها نزوعاً عرفانياً ويستعين بها كمخلّص من نزعات نفس السّالك وعقبات الطريق. في رحلة النور هذه؛ حيث يجعل منها حارساً للأسماء الإلهية تارة، وتارة أخرى يجعل منها مفاتيح الدّخول إلى عوالم النور ذاتها، «ولم تكن تلك

الكائنات التي زحرت بها أساطيره سوى نوع من العون المادّي الذي ساعد على إضفاء شكل من أشكال الوجود والذاتية»<sup>15</sup> لكن كيف طوّع هذه الأساطير وجعلها خادمة له؟ وبما أن الأدب هو الخطاب الذي يُطرح فيه سؤال المعنى والحقيقة فما علاقته بالعجائبي؟ أم أن الأسطورة تقول شيئاً لا يمكن أن يُقال بطريقة أخرى. ويتجلّى توظيف الأسطوري أثناء سرد الرّحلة من خلال الوصف المتمثّل في تلك الصّور الأدبيّة والمواقف البديعة والطرائف الغريبة وحكايات تدعو للإثارة والتشويق والمشاهد الرائعة حيث يكشف فيها البطل عن عالم غرائبي ويحكي عما شاهده وسمعه وما مرّ به من صعوبات أثناء تلك الرّحلة، ويعبّر عن تجاربه الشّخصية التي واجهته أثناء رحلته إضافة إلى الوصف الدقيق والمشاهدة الثّاقبة، هذا ما يجعل اللّغة تتدفّق بشكل عجيب ويجعل النّصوص عصيّة على القارئ ولكن بمجرد التعوّد عليها واستئناسها تصبح مألوفة ومشوّقة، بما تحتويه من سيّر وأخبار وحكايات وتداخل الأنواع الأدبيّة. ولقد طوّع هذه الأسطورة وجعلها خادمة له بعدما كانت عبارة عن حيّة عظيمة قد جمع الله رأسها إلى ذنبها بعد استدارتها بهذا الجبل؛ وهذا التّطويع يدلّ على تمكّن السّارد من جعل العارف السّالك يصل إلى مرحلة التّحقّق لخاصيّة الأشياء مثلما نجد النّبي سليمان يُسخرّ له الجن ويتحكّم في الشّياطين إذ يربطهم في قاع البحار ومنهم من يعملون له القدر والصحاف، ويأتمرون بأمره فالعفريت في قصّة بلقيس قال له أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك، وهذا دليل على أنه سخرّها تسخييراً لأداء مهامه للنّبي سليمان والتّفاني في الخدمة. في رواية "جبل قاف" والذي هو اسم جبل ورمز للبطل الرّاوي سيرته وهو الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي، والذي يبدأ رحلته من زيارة خزانة قاف في جبل قاف ومن تلك الزيارة بدأ يرى مرآتي ومبشرات عظيمة حيث رأى في مشهدٍ كلّ الأنبياء من آدم إلى محمد صلّى الله عليه وسلّم فقد حلّت بالحقائق التي تحقّقها في جبل ق وها هنا تحصّل على الولاية، ثم قصد الجزيرة الخضراء بعد أن تحصّل على كل العلوم والمعارف. ثم ذهب إلى سبتة ومنها إلى تلمسان ثم إلى تونس<sup>16</sup> وهو في الثلاثين من العمر. «في سن الثلاثين دخلت أرض الله الواسعة التي كنت أتردد عليها في جبل ق وأدخل منازلها الواحد تلو الآخر وخاصة منزل الرموز الذي يحتوي على منازل كثيرة. وقد حصل لي هذا في تونس فصحت صيحة صعق منها كل من سمعها من رجال

ونساء وأطفال...»<sup>17</sup>. كل ما حصل له من رحلات وأحداث على جبل ق لم يكن رحلة واقعيّة، وإنّما كانت رؤيا من الرؤى ما يرى في النّوم، لذلك قلنا بأن الرحلة إلى جبل قاف قد تكون رحلة ماديّة أو معنويّة، أو كالمعراج أو الطيران، هناك كتابات كثيرة عرفانيّة وغير عرفانيّة اعتمدت المعراج حدثا تخييليّا تأثرا بحادثة معراج النّبي صلّى الله عليه وسلّم ونسجت حوله عدّة حكايات شملت حتى الأدب الشّعبي، كما اهتم به المتصوّفة والعرفانيّون أيّما اهتمام لأنهم اعتبروه مدارج التّرقى في الطهارة الجسديّة والمعنويّة والعبادات وكأفة العلوم، ورياضة معنويّة؛ أي حدوث المعراج في السّير إلى الله والتّقرب إليه. فما هو المعراج؟ المعراج عند العرفانيّين هو «عبارة عن القرب، فمعراج الأنبياء يكون من وجه الإظهار بالشّخص والجسد، ومعراج الأولياء يكون من وجه الهمة والأسرار»<sup>18</sup>. وهذا الأدب الذي يتّخذ المعراج وسيلة لبيان الهدف المعرفي من الرّحلة، قد تكون الغاية من المعراج فكرة محدّدة وواضحة، وقد تتعدّد الأفكار فيغدو النّص ميدانا لاستعراض كم كبير من الأفكار ومن المعارف، ولا يكون المعراج إلّا بالخلوة\* وهي الاعتكاف، «وأول شروط الخلوة تطهير» العارفون -بعد العروج إلى سماء الحقيقة- اتّفقوا على أنّهم لم يروا في الوجود إلّا الواحد الحق. لكن منهم من كان له هذه الحال عرفانا علميّا، ومنهم من صار له ذلك حالا ذوقيّا. وانتفت عنهم الكثرة بالكلية واستغرقوا بالفردانية المحضّة، واستوفيت فيها عقولهم، فصاروا كالمهوتين فيه ولم يبق فيهم متسع لا لذكر الله ولا لذكر أنفسهم أيضا. فلم يكن عندهم إلّا الله تعالى فسكروا سكرا رفع دونه سلطان عقولهم فقال أحدهم "أنا الحق" وقال الآخر "سبحاني ما أعظم شاني! وقال آخر: "ما في الجبة إلّا الله"»<sup>19</sup>.

جاء في الرّواية أن الشيخ "محيي الدين بن العربي" دخل إلى خزانة قاف في جبل قاف في مدينة قاف في "إشبيلية" التي تحرسها أسماء إلهية، وهذه الأسماء عددها اثنا عشر اسماً من أسماء الله الحسنى كلها تبدأ بحرف القاف منها: القديم، التقدير، القابض القدوس. فهذه الأسماء غير ظاهرة هي الأسماء الأمهات التي تتفرّع عنها الأسماء الأخرى. وحتى يدخل "ابن عربي" إلى هذه الخزانة عليه أن يفتح هذه الأبواب ولن يتمّ له ذلك إلّا

عبر المرور بمراتب عرفانية. وتنتهي الرحلة بالتحقق بالعلوم المتواجدة في هذه الخزانة التي تجمع العلوم على وجه الأرض منذ كان العالم عالماً، ويخرج منها وقد أصبح في حد ذاته خزانة متنقلة وهذا هو التوحد الحقيقي. توحد العالم والمعلوم والعلم بحيث لم يعد هناك انشطار بين الشيء المعلوم والإنسان العالم أي توحد العارف بالمعروف. فأصبح منذ ذلك الوقت عالماً بكل شيء. ومن هنا توحد اسم ابن العربي بجبل قاف فكانا كلاهما قافاً. وجبل قاف المعادل الموضوعي لابن العربي. «...بناؤها دائري حلزوني على شكل القاف ومركزها هو ذلك البرج الذي يشبه دائرة قاف، فيا لها من متاهة عجيبة. وقاعدة الخزانة على شكل مربع وأعلى المربع قبة دائرية وعلى القبة التواءات كما لو أن حية ملتوية على القبة أخذة بفكها على ذنبها... أما أرض الحجره فعليها خطوط تحاكي الحية الملتوية على جبل قاف»<sup>20</sup>. لقد استكشف تلك الخزانة التي أدت به للوصول إلى الأسماء الحسنى وهي عبارات عن حجرات معلّمة بالأسماء الإلهية وتحقق منها كلّها إلى أن وصل إلى أرض الأسرار ومعه غلامه بدر الحبشي «إن الأرض برة يطأها البر والفاجر، فمن عرف أرضه وعمرها بالفلاحة الطيبة أثمرت له في سماء المعارف والعلوم. إن هذه الخطوط عبارة عن الحية التي تكلم عنها الحكماء والتي تطوق جبل قاف الذي وصلناه بحمد الله. إنه جبل ليس من صخر أو تراب بل من زمرد أخضر. والحية رمز للحياة ولهذا كان آخر اسم دخلنا منه للقاعة الكبرى هو اسمه "الحي". فافهم يا ولدي، فقد كشفت لك عن أسرار ما باح به قبلي أحد. إن جبل قاف لا يصله إلا الصّالحون العارفون المقربون. ولا تظن أنه فعلا محيط بالأرض. فالأمر وراء ذلك إنّه جبل غيبي لا يرى بالعين المجردة. إنه عبارة عن الحجاب الذي يفصل الحس والمعنى والغيب عن الشهادة والملك عن الملكوت. فلا يصل إليه إلا من اخترق الحجاب ولا يصل لذلك إلا الأولياء. وبعبارة أخرى إنه رمز للقلب المحمدي ولهذا كان عدد "قلب" على عدد "محمد" 132 الذي مر بنا في الأقفال الثلاثة. وجملة القول، إن الذي يصل إلى جبل قاف هو المتحقق بمرتبة القطبية العرشية، ولهذا تفصيل آخر يحرم إفشاؤه...»<sup>21</sup>.

نهضت الرحلة على السفر والسلوك والإسراء والمعراج، وقد كان الشيخ الأكبر "محيي الدين بن العربي" هو القاف الذي يقف على جبل قاف الذي يعرج من خلاله في

هذه الرحلة ويسرد ما مرّ به خلال الخلوة التي أمره بها شيخه "أبو العباس العربي" وحدّثه عنها «فقال كلاما مفاده أنها من نعت وصفة أهل الصفة والصفوة وهي من أمارات وعلامات أهل الصلّة والوصلة وأنه يلزم المريد في بداياته العزلة عن أبناء جنسه وفي نهايته من الخلوة ليتحقق بأنس حبيبه. والخلوة العظمى هي خلوة جبل قاف الذي هو محيط الأرض ولا يصل له إلا كبار الصالحين لحضرة الحق تعالى»<sup>22</sup>. فالخلوة تحقّق القُرب والوصل إلى الله، خاصّة إذا كانت هذه الخلوة بعيدا عن النَّاس في جبل مثل جبل قاف. ولما دنا أجل بطل الرواية "محيي الدين بن عربي" الذي صلّى على جبل القاف. «لقد طوفت وعمرت واحدا وستين قافا هي كتاب وجودي على جبل قاف. إنني البداية والنهاية...لقد صليت الصبح في سفح الجبل، وقد أذن المؤذن لصلاة المغرب على القمة. وبين السفح وقمة الجبل مسيرة خمسمائة عام»<sup>23</sup>. وهذه الرحلة ليست خياليّة كالتي حدثت له وهو في الثلاثين سنة من عمره. وذلك على حدّ قوله بأنه صلّى الفجر على سفحه وهو في القمة أذن لصلاة المغرب وهو في قمة الجبل ووصف بعد سفحه عن قمّته بمسيرة خمسمائة عام؛ فهل يُعقل أن يصعد قمّة هذا الجبل بين التكبير والإقامة؟ وهل لديه من العمر ما يكفي لذلك؟ «كان محيي الدين قافاً، وقد سخر حياته للقاف. لقد اقتضى القاف أثر القاف، وما ثمة إلا قائف وقاف. لقد سالت النقطة كالعبرة تبكي القائف الذي طلب أعز ما يطلب، وخرّ ساجداً في محراب القاف (ق) الذي رأى (ر) حقائق الذات والتوحيد (أ) ثم فني بعدها في مداد نون (ن) نحيب الذات (ق- ر- آ- ن)، وتلك هي المنقبة العظمى والقربة المثلى مع الصديق والرفيق»<sup>24</sup>.

إنّ ورود أسطورة جبل قاف في المتن الروائي كمادّة لغويّة أكثر منها كوجود طبيعي كما وصفها المفسّرون وذكرها الجغرافيون والمؤرّخون، والغاية من ذلك معادلتها بالشّيخ ابن العربي، وذلك لاحتوائها كل معاني العظمة لهذا الجبل الموازيّة في شخص ابن العربي، فكانت معادلا بديلا وموازيًا له بكل عظمتها وما تحمله من عجائب وغرائب. وهذه القدرات سمحت للروائي أن يقدم لنا ابن عربي العارف الذي أطلق عليه الكبريت الأحمر وهو يسرد سيرته على الهيئة التي يجب أن يكون عليها. فهو الذي وصل إلى جبل قاف ووصفه وصفا

دقيقا وذكر كل عجيب وغريب فيه وأتى به كرمز دال على ابن العربي، وترك القارئ يبحث عن مدلولات الجبل بمعرفته الخاصّة؛ وذلك بخلق علاقات التّواصل بين والنّص القارئ اعتمادا على معارف القارئ حول جبل قاف. وعلى العموم فإنّ جبل قاف عبارة عن مكان مليء بالأسرار والأعاجيب لم يصل إليه إلاّ الأولياء الذين وصلوا مرتبة الولاية.

#### 4. خاتمة:

لقد كانت رواية جبل قاف مليئة بالإثارة وكلّ أحداثها تدور حول جبل قاف وما يحتويه من الغريب والعجيب، ورغم صعوبة الوصول إليه إلاّ أن بطل الرواية زاره عدّة مرّات وصلى هناك صلوات اليوم واللية وروى ما شاهده وصادفه هناك.

- كان العرفان والوصول إلى معرفة الله هدف أسمى لا يقارن بشيء إلاّ بجبل قاف العظيم، والشيخ ابن العربي عظيم بقدر عظمة هذا الجبل، وأنه بلغ مقاما عاليًا في الولاية، فهذا الجبل خاص بالأولياء.
- انكشفت الأسرار الكونية ومفاتيح الغيب أمام العارف السالك في جبل قاف.
- نُزِعَ توظيف أسطورة جبل قاف داخل المتن الروائي العرفاني المفهوم الأوّلي وألبست معنىً نورانيًا معرفيًا
- استعان عبد الإله بن عرفة بأسطورة جبل قاف لبيان عظمة الشّيخ ابن العربي ووصف رحلته الروحانيّة. وما رأى في رحلة التّور هذه من الطرائف الغريبة والحكايات العجيبة ما يدعو للإثارة والتشويق.
- أسطر عبد الإله بن عرفة الشيخ محيي الدين بن العربي إذ جعله معادلا وبديلا لجبل قاف الأسطورة فأسقط عليه كل خصائص الأسطورة.
- باتت الأسطورة تحريرا للإنسان من المألوف والواقعي والمسلّم به، وتنويرا له للتعرف على عظمة الخالق وقدرته بإعمال العقل. كما عُدت قيمة فنيّة وجماليّة للإحساس والذوق الفنّي بإكمال النّقص وإتمامه. ذلك النّقص الموجود في الإنسان بفطرته.

- تمثلت أهمية جبل قاف الأسطورية في تمثّل الخيال العربيّ الخصيب وتوسيعه بتوليد معانٍ جديدة واستكشاف دلالات عميقة.

## 5. قائمة الإحالات:

- 1- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، ج4، ط1، دار الصادر، بيروت، : (د ت). ص 363.
- 2- عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تدقيق: محمود عبد القادر الأرنؤوط، مجلد 4، ط1، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان؛ 1999. ص 68.
- 3- رولان بارت، أسطوريات -أسطرة الحياة اليومية-، تر، قاسم حداد، دار نينوى، سوريا؛ 2012. ص 225.
- 4 - نضال الصالح، النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة، (د.ط)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق؛ 2001. ص16.
- 5 - نضال الصالح، النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة. ص21.
- 6- زكريا بن محمد بن محمود القزويني، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات (مخطوط). ص 170.
- 7- سراج الدين أبو حفص عمر بن المظفر بن الوردي، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، المحقق، أنور محمود زناتي، ط1، مكتبة الثقافة الإسلامية، القاهرة؛ 2008. ص 15.
- 8- عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تفسير القرآن العظيم. ص 495.
- 9- أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري الثعلبي، قصص الأنبياء (المسئى بالعرائس)، مكتبة الجمهورية العربية بالأزهر (مخطوط). ص 5.
- 10- عبد الإله بن عرفة، جبل قاف، ط1، مطبعة عكراش بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب؛ 2002. ص 309.
- 11- محي الدين بن عربي، الفتوحات المكية، الجزء الخامس، ضبط وتصحيح: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت؛ (د ت). ص 192.
- 12- عبود حنا، النظرية الأدبية الحديثة والنقد الأسطوري، اتحاد الكتاب العرب، دمشق؛ 1999، ص 78.
- 13- رولان بارت، أسطوريات -أسطرة الحياة اليومية-، ص 7.
- 14- عبد الإله بن عرفة: جبل قاف. ص 310.
- 15 - نضال الصالح، النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة. ص 13.
- 16- ينظر، عبد الإله بن عرفة، جبل قاف، ص 183-188.
- 17- عبد الإله بن عرفة، جبل قاف، ص 189.
- 18- رفيق العجم، موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، ط1، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت؛ 1999. ص 904.
- \*الخلوة: محادثة السرمع الحق حيث لا ملك ولا أحد سواه. ينظر: محي الدين بن عربي، اصطلاحات الصوفية عربي-فرنسي-إنكليزي. إعداد وتقديم، عبد الحميد صالح حمدان، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة؛ 1999. ص 19.

## توظيف أسطورة جبل قاف في رواية جبل قاف لـ عبد الإله بن عرفة

---

19- أبو حامد الغزالي، مشكاة الأنوار ومصفاة الأسرار، تح، عبد العزيز عزالدين السيروان، ط1، عالم الكتب؛ 1986. ص 139.

20- عبد الإله بن عرفة، جبل قاف، ص 106-111.

21- عبد الإله بن عرفة، جبل قاف، ص 137-138.

22- عبد الإله بن عرفة، جبل قاف. ص 99.

23- عبد الإله بن عرفة، جبل قاف، ص 374.

24- عبد الإله بن عرفة، جبل قاف. ص 375.